الجناس التام فى القرآن

للأستاذ محمد أحمد الغمراوى

ذكر صاحب الإتقان وتابعه صاحب الوسيلة الأدبية أن ليس فى القرآن الكريم من الجناس التام إلا مثالان: قوله تعالى من سورة الروم (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة) ومن سورة النور (يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار . يقلب الله الليل والنهار ، إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار)

وقولهم هذا إن صدق ليس فى ذاته بذى خطر ، فليس

أما سيرتها فى بيتها ، فسيرة البنت البارة ، والطالبة الجادة ، والمسلمة التى تعرف حق نفسها وحق أهلها وحق ربها ، تترك لله كل ما لا يرضى به الله ، لا رغبة عنه فى الظاهر مع رغبة فيه فى الباطن ، بل عن إيمان ويقين ، وتصديق لقول الرسول : من ترك شيئا لله عوضه الله خيرا منه

تركت القصص الفاجرة ، والأفلام الداعرة ، وكل ما تسابق اليه من اللهو الفتيات ، وما تطمع فيه من اترافه البيات ، فعوضها الله عن ذلك علما وفهما ، ومنزلة تتمناها كل بنت فلا تصل إليها إلا القليلات ؛ وراحة فى نفسها ، واطمئنانا فى قلبها لا ينالها بالمال بنات ملوك المال

* * *

هذه هى الآنسة عطار التى تعلمت من سيرتها أنه لا يصلح البيت إلا الصالحات من البنات ، فإذا أردنا الإصلاح حقا فلنعد له مثل (الآنسة عطار) التى أشرهذا الطرف من سيرتها ، لتتخذها طالبات الجامعات قدوة لهن ومثالا ، ولترداد هى صلاحا بذلك وكمالا

على الطنطاوى

يهم أن يكون فى القرآن جناس تام أو لا يكون ، فما الجناس التام إلا نوع ضئيل من الجناس ، وما الجناس إلا نوع واحد من المحاسن البديعية ، وما هذه إلا باب من الأبواب التى تتحقق بها موسيقى التعبير فى فصيح الكلام ، وهى الموسيقى التى بلغت كمالها وتمامها فى القرآن. لكن القضية من حيث هى جديرة بالتمحيص لاتصالها بالقرآن الكريم من ناحية ، ولبعد فيها من ناحية أخرى فمن البعيد ألا يحوى القرآن على سعته إلا مثالين اثنين من الجناس التا

إن المحاسن اللفظية وجدت فى فصيح كلام العرب وفى القرآن العزيز قبل أن تسمى بأسمائها فى علم البيان أو البديع . فالعلم يستقرى الموجود ويصنفه ويضع لأصنافه الأسماء . وما أظن العلمين أحاطا بكل الموجود من أصناف تلك المحاسن . وموضع اللطف فى الجناس التام إذا لم يقصده التكلف أنه يلفت الذهن إلى معنيين مختلفين بلفظ واحد يذكر بمعنى ويتكرر بمعنى . فهو من حيث المعنى كلمتان مختلفتان ، ومن حيث النطق كلمة واحدة . ومن الواضح أن السلامة المعفو منه لا يكون فى الغالب إلا فى المشترك من الألفاظ

وليس لما اشترطه بعضهم فى الجناس التام من ألا يكون أحد المعنيين مجازيا محل ولا حكمة ما دام موضع الحسن هو اتفاق اللفظ مع اختلاف المعنى ؛ فاللفتة الذهنية هى سواء أكان المعنيان حقيقيين كلاهما ، أم كان أحدهما حقيقيا والآخر مجازيا

ولعل هذا الشرط الذى اشترطوه هو الذى ضيق عليهم الواسع من أمثلة الجناس التام فى القرآن . وحتى مع هذا الشرط فإن فى القرآن الكريم من الجناس التام أمثلة فوق الذى ذكروا لا يدرى كيف خفى عليهم مكانها وهم من هم فى الدقة والتنقيب وتمام العناية بالقرآن

وهم يقسمون الجناس التام قسمين ، فما كان بين لفظين

من نوع واحد كأن يكونا اسمين أو فعلين سموه متماثلا ، وإلا فهو مستوف . ولكل أمثلة فى القرآن الكريم

فمن أظهر أمثلة المستوف مثلان : الأول فى قوله تعالى لأسرى بدر من سورة الأنفال : (إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم) فإن خيرا الأولى اسم ، وخيرا الثانية أفعل تفضيل . أما المثل الثانى ففى قوله تعالى من سورة المؤمنون بعد أن نفى أن يكون معه سبحانه إله غيره : (إذن لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض) فإن الجناس بين الفعل علا والحرف على تام ظاهر لا ينقص منه دخول لام التوكيد على الفعل قياسا على دخول فاء العطف وأداة التعريف على أحد ركنى الجناسين دون الآخر فى بعض الأمثلة المشهورة فى علم البديع

أما المتماثل منه فأمثلته فى القرآن الكريم متعددة ، نذكر الآن منها عددا ليرى القارئ البصير فيها رأيه . وما نظنه يخالفنا فيها كلها إن خالفنا فى بعضها . فمن ذلك قوله تعالى فى سورة الأنفال (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) فإن رميت الأولى النفية لا يمكن أن تكون بمعنى رميت الثانية المثبتة ، وإلا كان ذلك من التناقض المستحيل على القرآن . فلا بد أن تكون الأولى بمعنى أصبت وتكون الثانية على ظاهرها بمعنى رميت ، إشارة إلى قذف النبى صلى الله عليه وسلم الحصى أو التراب فى وجوه المشركين فى غزوة بدر وما كان من انهزامهم عقب ذلك . فالرمى بمعنى القذف هو من النبى ، والرمى بمعنى إصابة أعين المشركين حتى انهزموا هو من الله سبحانه . فاللفظ واحد والمعنى جد مختلف

وفى الحق أن هذا المثال يفتح بابا واسعا للجناس التام فى القرآن هو باب الآيات التى ينسب فيها نفس الفعل أو الشئ إلى الخالق سبحانه وإلى المخلوق فى وقت واحد ، إذ من الواضح أن المعنى لا يمكن أن يكون واحدا فى الحالين وإن اتحد اللفظ ؛ كما فى قوله تعالى حكاية لقول سيدنا عيسى يوم القيامة تبرؤا من أن يكون دعا الناس إلى عبادة نفسه وعبادة أمه من سورة المائدة (إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك) فإن « نفس » هنا فى تكرارها ذات معنى يختلف فى الموضعين اختلافا كليا حسب نسبتها إلى عيسى أو نسبتها إلى الله سبحانه . وإن جاز أن يكون اختلاف الضمير المتصل مخرجا لهذا المثل عن تمام الجناس فى منطق الأعظمين

وإذا عدنا إلى الأمثلة المألوفة وجدنا مثالا آخر فى أول سورة الرحمن فى قوله تعالى : (والسماء رفعها ووضع الميزان ، ألا تطغوا فى الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان)

ويجب أن يكون مثل الزمخشرى وقدفهم لفظ الميزان بمعنى واحد فى المواطن الثلاثة وإن توسع فيه فجعله يشمل كل معيار فى الكيل والوزن وغيرهما . ولكن القاموس يذكر من معانى الميزان العدل . وإلى هذا ذهب عدد من المفسرين فى الموطن الأول ففسروا «ووضع الميزان» بمعنى » وشرع العدل » كما فى روح المعانى للألوسى والتفسير المحيط لأبى حيان . وهذا يجعل الآيات الكريمة من الأمثلة الفريدة لتمام الجناس حتى ولو اتحد معنى الميزان فى الموطنين الآخرين : لكن الأقرب الأصوب أن يختلف معناه فى الآيات الثلاث ، فيكون فى الآية الأولى بمعنى الشرع الذى توزن به الأعمال والأحكام فى الجماعات ، ويشهد لهذا آية سورة الحديد: (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) إذ من الواضح أن الميزان هنا لا يمكن أن يكون الآلة المعروفة بدليل «أنزلنا»، ودليل العطف على الكتاب ، ودليل الإطلاق فى قيام الناس بالقسط . هذا فى الآية الأولى . أما فى آية الرحمن الثانية فيكون الميزان على هذا مصدرا ميميا بمعنى الوزن أى التقدير والحكم . وفى القاموس من بين معانى الميزان أنه المقدار ، ومن بين معانى المقدار أنه القدر بمعنى القضاء والحكم . ويكون بمعنى

الآية الكريمة على هذا « ألا تطغوا فى القضاء والحكم » أما الميزان فى الآية الثالثة فبالمعنى المعروف . والنهى عن إخسار الميزان نهى عن الطغيان فيه ؛ لأن التعامل بالميزان عملية ذات طرفين إذا جنوب القسط فيها كان ذلك طغيانا أو إخسارا حسب الطرف المنظور إليه

هذا هو الوجه فى فهم تلك الآيات الكريمة وتفسيرها تفسيرا يتفق مع الإحكام الذى وصف الله به آيات كتابه العزيز فى أول سورة هود

وهناك باب واسع من أبواب الجناس التام فى القرآن لم ينتبه إليه ، ألا وهو الجناس بين الحروف والأسماء المبنية فإن الحرف أو الاسم المبنى قد يتعدد معناه فى العربية ، فإذا ورد فى آية بأكثر من معنى كان ذلك من تمام الجناس . إلا إنه لقصر هذا النوع من الكلمات وقلة حروفه يشترط لتحقق الحسن البديعى شروط . بشرط مثلا الانفصال فلا تكون اللام فى الآية الكريمة من سورة الحجر : (قال لم أكن لأسجد لبشر) مثلا للجناس التام . وبشترط فيه التقارب فلا تكون ما الشرطية وما النافية فى الآية الكريمة (وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه ، وما للظالمين من أنصار) مثلا ظاهرا ، لطول الفاصل بينهما . فإذا ما تحرينا هذين الشرطين وجدنا من هذا النوع أمثلة غير قليلة . فما يتعلق بما من ذلك قوله تعالى :

« قلتم ما ندرى ما الساعة » : سورة الجاثية

« ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به » : سورة المائدة

« إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله » سورة هود

فإذا ضممنا إلى الشطر الأول من هذا المثل ما سبقه فى نفس الآية وجدنا مثلا لطيفا لورود « ما » ثلاث مرات بثلاثة معان مختلفة : (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت)

ومن الأمثلة التى تم الجناس فيها بورود « من » بمعنيين مختلفين قوله تعالى من سورة البقرة : « يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا » فالأولى موصولة والثانية شرطية . وقد راعينا فى هذه الأمثلة الشرطين اللذين اشترطنا وتجنبنا ما لم يتوفر فيه شرط الانفصال ولو فى الظاهر كما فى قوله تعالى من سورة البقرة : (فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون) ففيه اتصلت ما المصدرية بالكاف . وكما فى قوله تعالى من سورة الكهف (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا) أو قوله تعالى : ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها) فقد اتصلت من الاستفهامية بالفاء فى الآية الأولى ، وأدغمت من فى من الموصولة فى الآيتين فكانتا كالكلمة الواحدة فى النطق وفى الرسم . وإلا فهذا النوع فى القرآن الكريم كثير

على أننا إذا جعلنا اختلاف المعنى للكلمة المتكررة هو العمدة والفصل فى الجناس التام انفتح لنا منه باب آخر هو باب الكلمة تختلف معناها لا باختلاف نوعها كما فى الأمثلة السابقة ولكن باختلاف مرجعها والمراد منها وإن ظلت الكلمة هى هى فى حقيقتها . خذ مثلا إليك قوله تعالى « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » فى موضعها من سورة الرحمن . إذ المعنى فى الإحسانين ليس بواحد ، فإن الإحسان الأول هو من العبد فى العمل ، والإحسان الثانى هو من الله فى الجزاء . فالأول بمعنى الإتقان والإخلاص لله فى العمل ، والثانى بمعنى الإكرام وإجزال الثواب للعبد . فهو فى صميمه مثل فريد من أمثلة الجناس التام إذا أخذنا فى هذا بمقوماته وروح الحسن فيه

ومثل هذا قوله تعالى من سورة براءة : (ومنهم الذين يؤذون النبى ويقولون هو أذن ، قل أذن خير لكم ، يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين) فإن « أذن » الأولى غير « أذن » الثانية فى الدلالة وفى المعنى الذى تفيد أنه فى موضعها من الآية . الأولى للذم أراده المنافقون والثانية للمدح أراده الحق سبحانه وأظهره بإضافتها إلى خير . كذلك يؤمن